الدين والفلسفة

الخصومة بينهما في المشرق

لمحمد يوسف موسى

« تكلمنا في الكلمة الاولى على الدين والفلسفة : نشأتهما ، فالعلاقة الطبيعية بينهما ، والعوامل الذاتية التي جعلت كلا منهما في طرف ، كلاهما للآخر عدو . واليوم نتحدث عن مظاهر الخصومة بينهما في الشرق الاسلامي »

لما انسابت الفلسفة اليونانية بين المسلمين تلقاها جماعات منهم بعقول ظمأى للمعرفة وأوجس خيفة منها آخرون يظنون أنها تحمل الكثير من الشر والالحاد وتناهض الدين في بعض ما جاء به من مبادىء وعقائد ، ولهذا تلقاها هؤلاء — منذ اللحظة الأولى — بصدور مطوية على سوء الظن بها وبالقائمين عليها والمروّجين لها

هذا هو تاج الدين السبكي يذكر عن المأمون أنهُ السابق لقول بخلق القرآن وناهيك بذلك بدعة في الدين وثلمة في صرحه ، بسبب القليل الذي كان يعرف من علوم الاوائل [1] كما يذكر ياقوت عن علي بن عبيدة الريحاني أنهُ كان له اختصاص بالمأمون وبسلك في تأليفه طريق الحكمة ، كما كان يُرمى بالزندقة . [2] ويظهر ان التهمة بالزندقة والالحاد كانت تسير جنباً الى جنب مع العناية بالفلسفة أو مجرد الاشتغال بها ، ومن ذلك نرى أن ياقوتاً نفسه يذكر في موضع آخر ان أبا زيد أحمد بن سهل البلخي ، المتوفى سنة ٣٢٢ هـ ، كان يتأثر فيما يؤلف طريقة الفلاسفة ، ولهذا رمي بالالحاد [3]

وكان المتزمتون — الذين لا يخلو منهم عصر — لا يعادون الطبيعيات والالهيات وحدها من العلوم الفلسفية ، بل تراهم أيضاً ينظرون النظر الشذر لعلم الحساب وعلم المنطق ، مع شديد الحاجة لهذين العلمين ، لا لشيء الاّ لانهما من علوم الأوائل ، حتى كان من أمثالهم : « من تمنطق فقد تزندق » ! وكان حزماً من حجة الاسلام الغزالي أن يلوم اللوم الشديد ، في تهافته وفي المنقذ من الضلال [4] هؤلاء الجهلاء الذين يضرون الدين بموقفهم هذا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً ! إذ من عرف وثاقة براهين الفلاسفة ، في هذين العلمين وسائر العلوم الرياضية لم يشك في شيء منها ، لكن يعتقد ان الاسلام مبني على الجهل

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ١ : ٢١٨ (٢) معجم الأدباء ١٤ : ٥١

(٣) معجم الأدباء ٣ : ٦٦ وما بعدها (٤) المنقذ ص ١٠ وما بعدها ، والتهافت ص ٩٠ وما بعده

وإنكار البرهان القاطع فيزداد للفلسفة حبًّا وللاسلام بغضاً » [١]

واذا تجاوزنا عصر الغزالي نجد أحد الخلفاء العباسيين ، وهو المستضيء بالله ، يأمر — كما يروي ابن الأثير — بكتب أحد القضاة فيحرق ما كان منها في علوم الفلاسفة ، فكان مما صار طعاماً للنار كتاب الشفاء لابن سينا ودائرة معارف إخوان الصفا [٢] . كما نجد ابن الجوزي المتوفى عام ٥٩٧ هـ يحكم على فلاسفة المسلمين ، الذين تأثروا فلاسفة الاغريق فيما ذهبوا اليه ، بأنهم خلعوا ربقة الاسلام ، وبأن اليهود صاروا أعذر منهم لتمسكهم بشرائع سماوية لها معجزاتها بينما هم لامستند لما كفروا به الا زعمهم أن فلاسفة اليونان حكماء [٣]

وبعد هذا نشير الى حادث عبد السلام البغدادي المعروف بالركن الذي كان كل ذنبه أن استعمل فضل ما رزقهُ الله من عقل فيما أمر به من النظر في ملكوت السموات والارض ، فاتهم بالتفلسف وصُدر الامر باحراق كتبه ، فتمّ هذا الجرم الشنيع في حفل حافل وتولى كبره عبد الله التيمي البكري فجعل يتناول كتبه كتاباً كتاباً ويبالغ في ذمه وذم مؤلفه ثم يلقيه في النار ، ولما وصل الى كتاب الهيئة للحسن بن الهيثم قال وهو يشير الى الدائرة التي مثّل بها الفلك : « وهذه الداهية والدهياء والنازلة الصماء والمصيبة العمياء » ثم خرقها وأطعمها النارا [٤] على أن « الركن » تغير حظه بعد هذا فأخلي سبيله وأعيد الى مناصبه واستمر كذلك حتى مات عام ٦١١ هـ

ثم كان بعد ذلك محنة سيف الدين أبي الحسن علي الآمدي ، أوحد الفضلاء وسيد العلماء وأكثرهم معرفة بالعلوم الحكيمة والمذاهب الشرعية كما يقول ابن أبي أصيبعة [٥] . لكن الحسد — وهو داء العلماء — كان له بالمرصاد ، فاتهم من الفقهاء بفساد العقيدة والذهاب مذاهب الفلاسفة ، وكتبوا بذلك محضراً استباحوا فيه دمه ، وعلم الآمدي ما يبيّتون لهُ ففرّ هارباً من مصر الى الشام حيث أقام بدمشق مدرساً فترة من الزمن ، ثم عُزل لمثل ما قُرف به في مصر وظلّ متعطلاً حتى توفي عام ٦٣١ هـ

واذا وصل الباحث الى القرن السابع الهجري لا يسعه أن يغفل في هذه الناحية فتوى الامام المحدّث والاصولي الفقيه أبي عمر تقي الدين الشهرزوري المعروف بابن الصلاح المتوفى عام ٦٤٣ هـ ، تلك الفتوى الخاصة بتحريم المنطق والفلسفة تعلّماً وتعليماً ووجوب أخذ المشتغلين بشيء من هذا بشديد العقاب ليكونوا لسواهم عظة وعبرة ، والتي كان لها أثر بالغ استمرّ حتى هذه الأيام :

سُئل فيمن يشتغل بمؤلفات ابن سينا فأجاب غفر الله لهُ : « من فعل ذلك فقد غدر بدينه وتعرّض للفتنة العظمى » ، لأن ابن سينا « لم يكن من العلماء بل كان شيطاناً من

(١) المنقذ من [illegible]

(٤) أخبار الحكماء للقفطي ص [illegible]

شياطين الانس » [١] وسئل ما حكم الله فيمن يشتغل بالمنطق والفلسفة تعلّماً وتعليماً ، وهل يجوز استعمال المنطق في اثبات الاحكام الشرعية ، فكان من اجابته : « ان الفلسفة أس الشر والانحلال ، ومادة الحيرة والضلال ، ومثار الزيغ والزندقة ، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة ، ومن تلبس بها تعليماً وتعلماً قارنه الحرمان والخذلان واستحوذ عليه الشيطان ! وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة ، ومدخل الشر شر [٢] ، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع » [٣]

وفي القرن الثامن نرى الذهبي يقرر أن الفلسفة الالهية ما ينظر فيها من يرجى فلاحه ، ولا يركن الى اعتقادها من يلوح نجاحه(؟)فان هذا العلم في شق وما جاءت به الرسل في شق ، وما دواء هذه العلوم وعلمائها والقائمين بها علماً وعملاً إلا التحريق والاعدام من الوجود ، إذ الدين كان كاملاً حتى عرّبت هذه الكتب ونظر فيها المسلمون فلو أعدمت لكان فتحاً مبيناً ! [٤]

ولقد كان من آثار فتوى ابن الصلاح ما ذكره جلال الدين السيوطي في مقدمة كتابه « طبقات المفسرين » ، إذ يقول في ترجمته لنفسه : « وقد كنت في مبادىء الطلب قرأت شيئاً في علم المنطق ، ثم ألقى الله كراهته في قلبي ، وسمعت ان ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك ، فعوّضني الله عنه علم الحديث وهو أشرف العلوم » [٥]

هذا ، ونختم الحديث عن رأي رجال الدين والعلماء عن الفلسفة والفلاسفة في المشرق ببيان آراء ثلاثة من المؤرخين الاثبات ، وهم : ابن خلدون ، والمقريزي ، وطاش كبري زاده

أما ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ فيرى في مقدمته « أن الفلسفة مخالفة للشريعة ، فليكن الناظر فيها متحفظاً من مغالطها » [٦] . وأما تقي الدين المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ فقد ذكر انه قد « انجرّ على الاسلام وأهله من علوم الفلاسفة ما لا يوصف من البلاء والمحنة في الدين ، وعظم بالفلسفة ضلال أهل البدع وزادتهم كفراً الى كفرهم » [٧] ثم جاء بعد هذين طاش كبري زاده المتوفى سنة ٩٦٢ هـ فحذر من أن نطلق اسم العلم على « الحكمة المموّهة التي اخترعها الفارابي وابن سينا . ووصف حكماء الاسلام بأنهم طائفة « عكفوا على دراسات ترهات أهل الضلال وسموها الحكمة ، وربما استجهلوا من عرى عنها ، وهم أعداء الله وأعداء أنبيائه ورسله ، فالحذر الحذر منهم . والاشتغال بحكمتهم حرام في شريعتنا ، وهم أضر على عوام المسلمين من اليهود والنصارى لأنهم يتسترون بزيّ أهل الاسلام» [٨] على انهُ بعد هذا أباح النظر في علوم الفلاسفة لمن تثبّت من الشريعة ، وكانت غايته من النظر فيها الرد على ما يخالف الدين منها ، وبشرط ألاّ يمزج كلام الفلاسفة بكلام علماء الاسلام.

(١) فتاوى ابن الصلاح ص ٣٤ (٢) يلاحظ انه استعمل المنطق في الاستدلال على تحريمه دون ان يدري ! (٣) الفتاوى ص ٣٥ (٤) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي ٢ : ٤٣ ص ٤٣
(٥) النزات اليونانية ص ١١٦ (٦) المقدمة ص ٤٢٦ (٧) الخطط ١ : ٤٨٣ (٨) مفتاح السعادة ص ٢٦